الدكور محمد علي الشامي

الحزن: بواعثه ونتائجه

الحزن طبيعة إنسانية وعنصر أصيل في النفس البشرية، وهو يشكّل مع الفرح وجهين لعملة واحدة ، هي الكتلة الشعورية للإنسان والتي يواجه بها ما يقابله من تطورات الحياة.

إلا أنّ الحزن هو الوجه الأكثر تألّقاً، وربما الأبقى والأكثر بروزاً في سلوك الإنسان وتصرفاته.

وإذا تأملنا قليلاً في ردات فعل الإنسان، لاحظنا أننا نستطيع بسهولة أن نثير الحزن في شخص ما، متى أوجدنا المسببات المولّدة لهذا الحزن، كما يمكننا أن نجعله يحزن بصدق وعمق وبسرعة واضحة.

أما الفرح الذي يمكن إثارته أيضاً، فإنه لا يستجيب بالسرعة نفسها التي يستجيب لها الحزن، كما أنه لا يمكن أن يكون نابعاً من أعماق النفس بالضرورة ، ونلاحظ أن هذا الفرح يتحوّل الى حزن دفين متى أوجدنا الأسباب المولّدة لذلك.

أما العوامل والدوافع المثيرة للحزن، فهي كثيرة في الحياة، ويكفي أن يشعر الإنسان مثلاً بعدم تأقلمه مع الوسط المحيط، حتى تُثار عنده عاطفة الحزن.

ولعلّ أهم العوامل أيضاً هو الشعور بالإضطهاد في شتى أنواعه. فالإنسان المضطهد أو الذي يشعر بذلك، أو حتى الذي يتخيّل أنه مضطهد، سواء كان هذا الإضطهاد أسرياً في البيت، أو المدرسة، أو المجتمع... هذا الإنسان لابد أن يتولّد عنده الإحباط والذي يدفعه الى الإنطواء على ذاته، مما يولّد في نفسه حزناً على واقعه، وربما يفجّر ثورة وتمرداً ورفضاً للقيود التي يراها معوقاً وحاجزاً في وجه تحقيق أهدافه وحاجاته ورغباته... ومن المفيد كأن نرى في الإضطهاد السياسي أهم أنواع الإضطهاد. بل هو رأس لكل ألوان الإضطهاد، لأن المضطهد سياسياً، وسواء كان ذلك بسبب عقيدة أو مبدأ أو أي لون آخر. فإنه تنعدم لديه جميع أنواع الحرية، أيّاً كانت إتجاهاتها : سياسية أو فكرية ، أو إجتماعية ، أو إقتصادية...

وقد اتخذ الإضطهاد السياسي أشكالاً كثيرة ومتنوعة برزت في جميع مظاهر الحياة وإتجاهاتها، ومنها الإضطهاد الفكري ، أو الديني، أو المذهبي والذي نشهده اليوم، وشهدناه في الحاضر والماضي، من صدامات دينية وطائفية ، أحدثت خللاً واضحاً في بنية كثير من البلدان والدول.

ومن أشكال الإضطهاد أيضاً الإضطهاد الإقتصادي، والذي نشهده اليوم في شكل التنافس المحموم بين مبادئ وأنظمة إقتصادية معينة، أو بين ما يسمى اليوم بالصراع الحاد ما بين الدول الغنية والمسيطرة على مصادر الثروات والإنتاج ووسائلهما، وبين الدول الفقيرة أو النامية (المتخلفة) والتي تشكل في الواقع ، مرغمة، سوقاً إستهلاكية مفتوحة لمنتجات الدول الغنية.

كذلك الإضطهاد الثقافي الذي يتمثّل في فرض ثقافة الأقوى وأفكاره، ولغته على الأضعف المغلوب.

وبالإجمال، فإن الإضطهاد، ومهما تعددت أنواعه أو تشكّلت، يبقى عاملاً مهماً وأساسيا، ودافعاً قوياً في خلق الحزن وإثارته، خصوصاً عندما يرى الإنسان نفسه عاجزاً، بقدراته الذاتية، عن مواجهة قوى أكبر منه وتتحكّم به، وتفرض عليه مصيره، ولا يملك في مواجهتها إلا الإستسلام والمعاناة بشتى الأشكال.

وقد يشكّل الحزن وسيلة دفاعية هامة وسلاحاً، سلبياً أحياناً، وإيجابياً أحياناً أخرى لدى كثير من الشعوب المغلوبة على أمرها. وقد يتحوّل الى وسيلة إقناعية لدى الإنسان ينفس بها عن مكنونات نفسه التي لا يسمح لها بالخروج والتعبير إلا بهذه الوسيلة غير المراقبة. وقد يتحوّل هذا الشعور بالحزن الى شحنة يزداد تفاعلها بقدر ما تزداد عوامل القهر والإضطهاد أو حتى الشعور بهما.

هذه الشحنة الإنفعالية قد تؤدي الى الإنفجار والثورة، وربما الى تغيير الواقع...

وخلاصة القول أن الحزن ركن أساسي ومهم في النفس البشرية، ومحرك دائم التفاعل والدفع والتأثير في رسم حياة الإنسان وتوجهاته...